وقف فى شرفته فى الفندق يطل على دمشق، كانت السيارات تذرع الطرقات، والمارة فى غدو ورواح ، والمصابيح الكهربية تبدد ظلام الليل ، نظر الى ساعته وزفر زفرة ممدودة ، فما أشرفت على التاسعة بعد، انه يحس مللا يتسرب الى روحه وفراغا هائلا يحتويه ، ورغبة فى أن يفر الى شىء ، أى شىء .

وسمع صوت سيارة تقف فجأة ، اعقبها صوت جندى المرور يسب ويتوعد، فالتفت فى اهتمام ، وراح يتابع السباب، وقد رفت على شفتيه بسمة ، كان الجندى يصب اللعنة على السائق ، ويشعل النيران فى دينه ودين أجداده وسرعان ماخبت الثورة وانطلق السائق بسيارته فى طريقه كأنما لم يحرث شىء .

وعادت كل حركة تحركت فى نفسه الى مرقدها ، وراح يمد بصره الى محطة السكة الحديد فى ملل ، وانتابه خوف من الزمن الذى يسير فى بطء يرهق أعصابه، آه لو كان ممن يدمنون الشراب لهرع الى حانة يؤنس وحدته برفقة كأس ، وشارك روادها حياتهم .

انه منذ أن جاء الى دمشق وهو وحيد، يفرق فى العمل الذى ترك القاهرة من أجله حتى منتصف النهار ، ثم تبدأ وحدته القاتلة التى ترهقه ، وتلقى به فى غياهب فراغ مخيف . انه منذ أن وطات قدمه أرض دمشق لم يلق مايثير، يذهب فى الصباح الى عمله ثم يعود الى الفندق ، حتى اذا ماجن الليل راح يجوس خلال الطرقات حتى يتعب ومن ثم يعود الى الفندق لينام .

التقى بفتاة أول أمس فى فناء الفندق، راحت تحدق فيه برهة ، ثم قالت :

عبد الحميد جوده السحار

ـ من مصر ؟

ـ نعم ٠

ـ هلا ٠ لى أصـــدقاء كثيرون فى مصر ٠٠ أتعرف الدكتور محمد مراد ٠ انه ســـاكن فى الدقى ٠ انه من أعـز أصدقائى ٠ أتعرف الاســتاذ صـدقى عارف ، انه هو الآخر صـديقى ٠ انى عشـت فى مصر ســنوات ، لى فيهـا أصدقاء أعزاء ٠

ـ تشرفنا ٠

ومد يده وتناول مفتاح غرفتـه وقال لها وهو ينصرف :

ـ عن اذنك ٠

لماذا فعل هذا ؟ لماذا رفض صـداقة مدت له يدها وهو فى أشد الحاجة الى انسان يؤكد له أنه حى ، وأن ذلك الذى ينبض بين ضلوعه هو قلبه ، وأن الهواء الخارج من أنفه هو أنفاسه وأنه موجود على اليقين ، فهو فى كثير من لحظات فراغه يشك فى ذلك الوجود ٠

وسرى صـوت فيروز حنونا يغنى : « زورونى كل سنة مرة حرام تنسونى بالمرة ٠ حرام ٠٠ » فأحس كأن تيـارا من دفء الحياة يتدسس فى وجدانه ، وينساب الى قلبه ليحرك عواطف رقيقة فى نفسه ، تبلل عيناه بالدموع ٠

ووقف خاشعا يصغى ، الانغام تنسكب من أذنيه الى روحه فتشيع فى نفسه أسى وحزنا بيد أنه فى قرارته كان سـعيدا بتلك المشـاعر التى جعلتـه يحس أنه يعيش ٠ وسكت الصوت ، وظلت لمسة الحياة التى خلفها مشتعلة فيه ، فتحرك ليغادر الشرفة وينطلق الى الطريق ٠

وسار يتلفت ، يحس رغبـة فى أن يتحدث الى الناس ، وكلما وقعت عيناه على اثنين يتناجيان راح ينظر اليهما نظرة محروم ، حتى اذا ما بلغ مقهى والفاه يعج بالنـاس عجيجا عرج اليـه وجلس على أول كرسى قابله عنـد المدخـل ، وراح يدير عينيه فى الموجودين ، كانوا يدخنون النرجيلة ويلتفون حول من يتبارون فى لعب الطاولة ٠

انه لم يشته يوما أن يلعب الطاولة ، بيد أنه كان فى هذه اللحظة يكاد يذوب شوقا الى انسان يدعوه الى منازلتـه ، ومادار بخلده أبدا الفوز أو الهزيمة ، كل ما يتمناه أن يسمع صوتا يوجه اليه ، ولو ظل ذلك صـوت يسخر منـه ومن لعبه ويتهمه بأنه غشيم ٠

جاء أحد العاملين بالمقهى ووقف أمامه وقال :

ـ نرجيلة ؟

ـ شكرا ، شاى باللبن ٠

وانصرف الرجـل وسرعان مـا عاد بالشـاى ، ووقف برهة دون أن يضـع الشاى على النضد ثم قال :

ـ ألا تتفضل بالداخل ؟

وقرأ الرجل فى عينيـه الدهشـة ، فقال له :

ـ حتى لا تأخذ « أحه » ٠

ورأى الرجل أن الدهشـة زادت فى عينيه ، فقال له :

ـ مصرى ؟

ـ نعم ٠

فقال الرجل مفسرا :

ـ أحه عندكم يعنى .. يعنى كحة .

ثم انفجر الرجل ضاحكا كأنما كانت كلمة « كحة » تحمل معنى يثير الضحك الذى تهتز له البطون وتنفرج له الادواج!

وقام ودخل وجلس بعيدا عن الهواء حتى لا يصاب « بأحه » وراح يتناول الشاى وسرعان ما عاد اليه سأمه ، فنهض وغادر المكان .

وراح يضرب فى شوارع دمشق ، يلف ويدور ، حتى وجد نفسه أمام ملهى الكروان ، فأخذ يقتل الوقت بمشاهدة صور الراقصات وقراءة الاعلانات ، ووقفت عيناه عند صورة فتاة المانية ، تسكن فى الغرفة الملاصقة لغرفته بالفندق ، كان يراها وهى صاعدة أو هابطة ، ولم يدر بخلده أنها فتاة من فتيات الفرقة الالمانية التى تعمل فى ملهى الكروان .

وشرد ذهنه ورأى نفسه يعيد خياله وهو يحمل علبة شيكولاتة أنيقة ويطرق باب غرفتها ، فتفتح له ، ويقدم لها العلبة وهو يقول : « تفضلى . كنت بالامس رائعة » وأفاق من شروده فوجد نفسه يتقدم ويدخل الملهى الليلى .

وجلس بين الناس ، وعزفت الموسيقى وارتفع الستار وامتلأ المسرح براقصات عاريات أخذن بصره لحظات وسرعان ماشعر بالفراغ يملأ وجدانه ، وخطر له أن يبحث عن الفتاة التى صور له خياله أنه يطرق باب غرفتها ، فراح يتلفت حوله ويتفرس فى الواقفات عند المداخل يعرضن أنفسهن على طلاب المتعة ، الا أنه لم يجدها ، فعاد يمد بصره الى الفتيات اللاتى يخطرن عى المسرح ، فرآها عارية مثلهن ، الا أنها أرفعهن ، لم تمتلىء أردافها بعد وبرز صدرها فى حياء ، كانت فى السابعة عشرة من عمرها ، تتعجل نضجها لتمارس أول تجارة مارستها المرأة .

واستمر ينظر دون أن يستشعر شيئا كأنما الصلة التى بين عقله وبصره وأذنيه قد انقطعت ، وبدأ يحس بصدره يضيق ، كأن المكان كله قد جثى على أنفاسه ، فنهض وسار متثاقلا لا يدرى ماذا يفعل .

وخرج الى الطريق ولفح الهواء وجهه ، فاذا بذهنه ينشط ، راح يفكر فى أمره ، كان وهو صغير يعتقد أن جيبه لو امتلأ بالمال لحلت كل مشاكل دنياه ، وهاهى ذى النقود تكاد تملأ كل جيوبه وتعجز عن أن تقنعه بوجوده !

وجذب بصره اثنان يترنحان من السكر ، يقع أحدهما على الارض ، فيحاول زميله أن ينتشله ، فوقف يرقبهما ، لا يدرى أيحسدهما أم يرثى لهما ، وظل الزميلان فى جهاد حتى استويا على أقدامهما ، فسارا خطوات واذا بعمود النور يعترض سبيلهما ، فأمسكا به وأخذا يدوران حوله ، وكأنما أعجبتهما اللعبة ، فطفقا يضحكان فى براءة الاطفال . وخطر له أن ينسى كبرياءه وأن يتظاهر بالسكر وأن يمسك بهما ويدور معهما وأن يطلق نفسه على سجيتها ، يقفز ويجرى ويمرح دون أن يحفل بعيون الناس ، وكاد أن يستجيب لهواجس نفسه ، فى الوقت الذى ظهر فيه الشرطى الى جوار الرجلين اللذين أغرقا همومهما فى الكئوس ، فانسل وقد طارت أفكاره وعاد اليه الخواء ليملأ تجويف رأسه وفراغ قلبه .

وراودته فكرة العودة الى الفندق ،

الا أنه لم يكن يشعر برغبة فى النوم ، فسار على غير هدى ، وآنس نورا يتلألأ على البعد ، فذهب اليه ، وقرأ « ثريا حلمى وفرقتها » فأحس حنينا يتحرك بين أحشائه ، وتقدم ليدخل الملهى دون أن يتردد .

كانت المناضد والكراسى منتشرة فى قاعة واسعة ، وكان شرف من الخشب الذى كسى بسجاجيد حمراء يتوسط القاعة ، انه المسرح من غير شك . والفى نفسه يتقدم ليحبس بالقرب من المسرح .

وقال المذيع السورى الذى يقدم النجوم :

ـ منولوجست الشرق ثريا حلمى ، فى منولوج : « انت تزقنى » .

وظهرت ثريا ترتدى ثوبا أبيض من ثياب أولاد البلد وقد تحزمت بحزام وفى يدها عصى ، ودوى المكان بالتصفيق ، وراحت تلقى منولوجها ، وبدأت ترقص ، الا أنها كانت تتوقف بين لحظة وأخرى لان الطلبة أخفقت فى أن تتتبع هزآت جسمها وبلغ ضيقها من الفرقة المصاحبة لها منتهاه ، فقالت :

ـ أين أنتم يا اولاد مصر !

فتحرك فى مقعده وكاد يصيح : « نحن هنا » ولكنه كبح جماح نفسه ، وان كانت قوة طاغية فى قراره تحاول أن تدفعه ليصعد على المسرح ويتناول الطبلة ، ويجارى ثريا فى هزات أردافها وحركات وسطها .

وانتهت ثريا من منولوجاتها ورقصاتها وصعد المذيع السورى وراح يعلن :

ـ والآن تشاهدون الرقص الشرقى من فاتنة النيل سلوى فريد .

ودق قلبه فى عنف ، وسرت دماء حارة فى عروقه وأرهفت حواسه جميعا ، وتركزت عيناه على المسرح ، ودبت فيه حياة لم يستشعر مثلها منذ أن جاء الى دمشق ، بل منذ أمد طويل ، وأحس وجوده وساعد على ذلك الاحساس المشاعر المتباينة التى كانت تتدفق الى فؤاده وتنبعث منه لتنبه كل الحواس .

وظهرت على خشبة المسرح راقصة أشبه ببرميل يعلوه رأس ، راحت تهتز فى بطء شديد وحاولت أن تميل بصدرها الى الخلف ، الا أن وسطها لم يعاونها ، وانبعثت من أرجاء القاعة الضحكات .

كان الجميع يسخرون منها ، وكلما حاولت أن تهز البرميل الذى يعلو ساقيها المكتنزتين باللحم ، كلما ارتفعت ضحكات الاستهزاء ، بينما ظل هو ينظر اليها ولكنه لم يكن يراها بعينيه بل كان يراها بخياله ، عادت به الذكريات سنين طويلة ، الى تلك الايام التى كان فيها طالبا ، وكانت سلوى تعمل فى كازينو بديعة بالقرب من كبرى الجلاء .

كانت فى تلك الايام فاتنة النيل حقا ، كانت ممشوقة القد ، ناصعة البياض ، زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ، وقد أطلق عليها رواد الليل : سلوى الانجليزية ، فقد كانت أشبه بالانجليزيات وكانت مفضلة عند الجنود الانجليز .

انه يرى نفسه يوم كان طالبا فى كلية الحقوق ، ويذكر ذلك اليوم الذى ساقته قدماه الى ملهى بديعة ، انه جلس فى الصف الاول يشاهد الراقصات ، وما كان يعرف عنهن شيئا فى ذلك

اليوم ، كل ما كان يبغيه أن يمضى ليلة يروح فيها عن نفسه ، ثم يعود الى دروسه ، وراحت الرقصات تتتابع وهو يشاهدها فى عدم اهتمام ، حتى اذا ما ظهرت سلوى على المسرح ، أحس قوة تجذبه اليها وراحت ترقص فخيل اليه أنها ترقص له وحده ، وابتسمت فابتسمت الحياة كلها وغمزت بعينها فى دلال فاستشعر كأن يدا حانية تعبث فى رقة بأوتار قلبه .

وانتهت من رقصتها ، فأخذ يصفق لها فى حماس ، دون أن يحفل بالعيون التى تعلقت به ، وسار كالمسحور حتى وقف تحت أقدامها وهو يصيح : برافو . برافو . والتقت عيناه بعينيها فرأى فيها جمال الدنيا وبهجتها .

وعاد الى بيته وهو مأخوذ بسحر سلوى وتمدد فى فراشه وطفق يشكر فى البسمة والغمزة والروح الخفيفة التى كاد يرى صفاءها من خلال عينيها ، وشخص ببصره الى بعيد ، كان يراها فى غلالة شفافة ترقص له ، وشرد خياله فرآها تميل عليه وتضمه بين ذراعيها وتقبله قبلة شهية كادت روحه تستشعر حلاوتها .

وفى الصباح مر وهو فى طريقه الى الجامعة بالكازينو ، فخفق قلبه ومد عينيه من خلال نافذة الاوتوبيس يبحث عنها ، كأنما كان يظن أنها فى الكازينو لا تغادره أبدا ، وانطلق الاوتوبيس فى طريقه وخلف الكازينو خلفه ، الا أن سلوى كانت فى ذهنه وفى قلبه .

وقفزت الى رأسه فكرة وهو فى المدرج بين زملائه ، لماذا لا يذهب الى الكازينو الآن يشاهدها وهى تتدرب على الرقص فى الصباح ؟ وأعجبته الفكرة فلن يناقشها وانسل من المدرج وانطلق اليها .

وقف أمام الدرجات التى تقود الى الملهى وهو خافق القلب ، يتلفت فى خوف ، ومست أذنيه موسيقى راقصة ، فلم أطراف شجاعته وتقدم ، وأشرف على المكان فرأى المدرب واقفا بين فتيات وهو يدربهن على رقصة جديدة ويقول وهو يصفق بيديه : واحد اثنين .. واحد . اثنين ... » ، وتقدم على استحياء ثم جلس ينظر .

وا نتهت التدريبات ولاحت سلوى بثياب الصباح . كانت بسيطة بساطة جعلتها فى عينيه أروع مما هى وهى عارية تغمرها الاضواء . خفق قلبه فى شدة بين جنبيه ، وفكر فى الفرار ، الا أنه حقد على نفسه التى تريد أن تخرجه من الجنة التى عرف طريقها ، وتشبث بكرسيه .

وأخذت تغدو وتروح على أنغام التخت كالطيف وتميل تمايل الاغصان وهو يتبعها بعينيه أينما سارت كعباد الشمس وانتهت من رقصتها ثم هبطت الى حيث كان يجلس واتجهت اليه فاشتد وجيب قلبه حتى انه استشعر أنه سيفر من بين جنبيه .

وأصبحت على بعد خطوة واحدة منه ، ووقفت ثم قالت :

ـ سيجارة من فضلك .

فقال فى تعلثم :

ـ آسف أنا لا أدخن .

وراحت تتلفت ثم نظرت اليه وقالت وهى تفتح حقيبة يدها :

ـ هل تتكرم بشراء سجاير لى ٠

ومدت اليه ورقة من فئة الخمسين قرشا ، فأخذها منها وهو حانق على نفسه ، لم يكن فى جيبه الا أجر الاوتوبيس ، آه لو كان معه نقود لطار يشترى لها بماله ما تريد ٠

وخف يشترى لها السجاير وسرعان ماعاد اليها بما طلبت ، لايجد غضاضة فى أن تكلفه بشراء سجاير لها ، هوالذى كان يثور على أمه وهو صغير اذا ماسألته أن يشترى لها شيئا من دكان البقال الذى كان على بعد خطوات من منزلهم ٠

وراح يتردد على الكازينو فى الصباح يشاهدها وهى تتدرب على رقصتها ، حتى اذا ما انتهت منها أسرع اليها يقدم لها سيجارة من علبة صار يحملها فى جيبه ، كان يشتريها بما يوفره من أجر الاوتوبيس ٠

وشغف بها حبا حتى انه ظن أن لا حياة له بدونها ، ووطن العزم على أن يفاتحها بحبه ، ويعرض عليها قلبه ، وكان كل ما يملكه فى دنياه ٠

ووقف يرقبها وهى ترقص ومشاعر طاغية تتفاعل فى جوفه ، وكانت أول مرة يتمنى فيها أن تنتهى من رقصتها ، ولاح القلق الذى يمور بين ضلوعه على حركاته ، فكان يعبث فى شعره وفى أصابعه وفى ازرار جاكتته ويرفع رجلا ليهبط أخرى وأخيرا انتهت من تدريبها وسارت الى مقعد وجلست تستريح ، فذهب اليها وسحب كرسيا وجلس الى جوارها وقال :

ـ اريد يا سلوى أن أحدثك فى أمر هام ٠

فقالت دون أن تلتفت اليه :

ـ تكلم ٠

فقال فى انفعال :

ـ أحبك يا سلوى ٠

فقالت فى بساطة :

ـ متشكرة ٠

ولم تؤثر فيه لهجتها الساخرة ، بل قال مندفعا :

ـ وأريد أن أتزوجك ٠

والتفتت اليه وقالت فى استخفاف :

ـ وبماذا ستشترينى ؟

فقال فى حرارة :

ـ انى بعد سنة واحدة سأحصل على الليسانس ٠

فقالت له فى هدوء :

ـ وبماذا سنعيش حتى تحصل على الليسانس يا روح ماما ؟

وظل ينظر اليها فى وجد دون أن ينبس بكلمة ، فقالت له :

ـ اسمع يا ٠٠ أنا لا أعرف اسمك حتى الآن ٠ ولا أظن أن الامر سيختلف كثيرا لوعرفت اسمك٠ اسمع نصيحتى٠ أنا خلقت لطريق ٠ وأنت خلقت لطريق آخر ٠

فقال فى حماس :

ـ لا يا سلوى ٠ أنت خلقت لى ٠ لى وحدى ٠ أنا أحبك ٠٠ أعبدك ولا قيمة لحياتى بدونك ، سأعمل من أجلك ، من أجل أن أسعدك ٠٠

ـ لا تزال صغيرا يا صديقى ، اذهب الى مدرستك .

ـ أنا أوفى بكل كلمة أقولها . سنة واحدة ثم أصبح محاميا وبعدها نتزوج.

فنهضت وهى تقول فى سخرية :

ـ وبعد بضع سنين تصبح وزيرا .

وسارت وسار خلفها وهو يقول :

ـ سلوى أرجوك ..

فوقفت والتفتت اليه وقالت فى عزم:

ـ اسمع . لا أريد أن أراك هنا ، ولا أحب أن تضيع وقتى .

ـ أحبك يا سلوى .

ـ وأنا لا أحبك .

ووقف كالتمثال وان أحس خنجرا يطعن قلبه ويمزق أحشاءه وراحت توسع من خطوها حتى ابتعدت عنه ، وهو يتلوى من الألم ويئن فى النار التى اشتعلت فى جوفه .

وأفاق من شروده على ضحكات السخرية التى كانت تدوى فى أرجاء القاعة ونظر الى سلوى التى أصبحت أشبه ببرميل وراح يتبعها بعينيه وهى تهبط من على المسرح وتسير بين الموائد، لتحتل مائدة فى مؤخرة القاعة ، بالقرب من باب الدخول .

وجاء رجل مفتول الشارب ، يرتدى ثوبا رثا وعلى رأسه طربوش ، يبدو كأنما نصفه الاسفل قد غمس فى الزيت، كان منظره يوحى بأنه حوذى ، واتجه الرجل الى المائدة التى جلست اليها سلوى وجلس معها ونادى الجرسون وطلب منه شيئا .

وجاء الجرسون بكأس نبيذ ، فراحت سلوى والرجل يتقارعان الكئوس ، وهو ينظر اليها من طرف عينيه ، وقد غمره أسى وطافت به موجة رثاء ، وتفجرت فى جوفه شفقة ، بللت عينيه بالدموع.

وأشار باصبعه للجرسون ، فجاء يلبى اشارته وقال :

ـ فى الخدمة سيدى .

ـ ارسل زجاجة شمبانيا للسيدة سلوى .

وأومأ برأسه الى حيث كانت تجلس فقال الجرسون فى دهش :

ـ زجاجة شمبانيا ؟!

ـ نعم .

وأخرج من جيبه حافظة منتفخة ، ودفع للجرسون ثمن الزجاجة ، فتناول منه الجرسون المبلغ وهو يرمقه فى بلاهة ثم قال :

ـ معوضين سيدى .

ودس حافظة النقود فى جيبه ، ثم انساب صوب الباب ، ومر بالمائدة التى تجلس اليها سلوى ، والتقت عيناه بعينيها ، فاضطرب وخفق قلبه ، وزاح يوسع من خطوه ليخفى اضطرابه بينما راحت تلقى بكأس النبيذ فى جوفها ، دون أن يبدو عليها أنها رأت شيئا ما يذكرها بماضيها .